الخطابة الإسلامية .. مفهومها وموضوعاتها

أحمد قعدان

سأتعرض في هذا المقال للحديث عن فن الخطابة الذي يعد من أنضج الفنون الادبية واكثرها ازدهارا وانتشارا عند العرب والمسلمين ذاك ان الخطابة جنس أدبي معروف عند كل الامم والشعوب، لا فرق في ذلك بين الامم المتحضرة والبدائية، ولا بين الحضر والبدو أو العرب أو العجم.

كما وسأتعرض الى أهم عوامل ازدهار الخطابة في صدر الاسلام التي على رأسها القرآن الكريم والدعوة الى الله وحرية القول واعتماد الاستشارة الجماعية، وكذلك أهم موضوعات الخطابة الإسلامية وعلى رأسها الخطب الدينية والاجتماعية والمخاصمات القضائية.

والخلاصة ان الخطابة كانت ذات اهمية بالغة عند العرب والمسلمين.

يعتبر فن الخطابة من انضج الفنون الأدبية وأكثرها ازدهاراً وانتشارا عند العرب والمسلمين وخاصة في عصرهم الأول ، حتى اعتبر بعض الدارسين أن الخطابة الحقيقية لم يعرفها حق المعرفة إلا العرب والمسلمون ، ولم تزدهر حق الازدهار إلا عندهم ، فما هو مفهوم الخطابة كما كانوا يرونه ؟ وما هي عوامل ازدهارها عندهم ؟

١- مفهوم الخطابة :

إذا ما تتبعنا التعريفات التي قدمها الدارسون القدماء للخطابة ، فإننا نجد عدة نصوص مبثوثة في مختلف المؤلفات (كتب الأدب والتاريخ ، معاجم لغوية واصطلاحية) ؛ من ذلك ما قاله "ابن وهب" الكاتب في كتابه : " البرهان في وجوه البيان " ، " فإما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجاً أو حديثاً ، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه ... ، فالخطب تستعمل في إصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب وحمالة الدماء والتشييد للملك والتأكيد للعهد وفي عقد الاملاك ، وفي الدعاء إلى الله عز وجل ، وفي الإشادة بالمناقب ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته بين الناس "[١] .

[١] "البرهان" ص : ١٥٠ تحقيق: حفضي محمد

وإذا كان هذا القول يروم تحديد الموضوعات التي خاض فيها الخطباء ، فان " أبا هلال العسكري " في كتابه : "الصناعتين" ، حاول أن يعرف الخطابة اعتمادا على بيان الفرق بينها وبين الشعر ، فيقول : " ومما يعرف أيضا عن الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار وليس للشعر بهما اختصاص .

والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين ، لان الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات ، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته لئلا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عز وجل من ذلك في كتابه .

إلى غير ذلك من منافع الخطب ، ولا يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعاً ولكن له مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها "[1] . وفي مقابل هذين الاتجاهين في التعريف ، نجد دارسين آخرين يبرزون ما في الخطابة من جوانب بلاغية كما فعل " أبو جعفر النحاس " حين قال : " وهي – أي الخطابة– من آكد ما يحتاج إليه الكاتب ، وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ، ومجامع الحكم ، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ، بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتَّاب "[2] .

وإذا ما تركنا كتب الأدب وتأملنا المعاجم وخاصة " الاصطلاحية " منها فإننا نجد تعريفات للخطابة تركز على ما تتميز به من جوانب إقناعية كما فعل " الشريف الجر جاني " حينما أوضح أن الخطابة : " قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه ، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم "[3] .

---

[1] "الصناعتين" ص ١٤٥ تحقيق: محمد قميحة

[2] انظر (صبح الأعشى) (للقلقشندي)١/٢٥٣-٢٥٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت

[3] (التعريفات)(للشريف الجر جاني) .

مثل هذه التحديدات و التعريفات كثيرة ومتفاوتة ، ويستفاد من مجموعها أن الخطابة فن شفوي أدبي بليغ ، يقوم على عنصري الإقناع والتأثير في الجمهور الذي يخاطبه الخطيب ، وهي بذلك تختلف عن الشعر غريزة ونظماً وبناء وظيفة ، كما أنها تختلف عن القول المكتوب بصورة عامة إبداعاً وتلقياً ، فالخطيب يواجه السامعين بشكل مباشر وبطريقة ارتجالية ومن ثم ليس في إمكانه التأني في التعبير أو التمهل فيه أو إعادة النظر فيه ، وهو مطالب بإخراج الكلام إخراجاً سليماً تاماً بمجرد ما يتلفظ به على عكس الكاتب الذي بإمكانه أن يراجع ما كتبه تنقيحاً وتشذيباً .

كما أن المستمع للخطبة لا يستطيع أن يتأنى في فهمه لها كما يشاء لئلا يفوته الخطيب ، ولا هو في إمكانه أن يعيد استماعها أو يرجع إليها كما يفعل القارئ في قراءته للنص المكتوب ، ولهذا قال (ابن وهب) وهو يقارن بين فن الخطابة وفن الكتابة :(والبلاغة في الجميع واحدة والعي فيها قريب من قريب ، إلا أن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ، ومأخوذة من لفظ مؤلفها ، وكان الناس جميعا يرمقونه ويتصفحون وجهه كان الخطأ فيها غير مأمون والحصر فيها عند القيام بها مخوفا محذورا .

فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تمكينها وتكرر النظر فيها وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها[1] .

والخطابة جنس أدبي معروف عند كل الأمم والشعوب ، لا فرق في ذلك بين الأمم المتحضرة والبدائية ، ولا بين الحضر والبدو ، أو العرب أو العجم ، إذ أن إلقاء الخطبة على مجموعة من السامعين لا يرتبط ببداوة أو حضارة أو لغة أو دين لا بزمان أو مكان ، فلقد عرفها اليونان، الفرس، الهند ،والأفارقة قديما ، كما تعرفها شعوب الأرض في العصر الحاضر على اختلاف لغاتها وحضاراتها وأعراقها ، ولذلك فانه من الطبيعي ان يعرفها العرب في العصر الجاهلي ، وأن ينبع فيها رجال ضرب بهم المثل في البلاغة وحضور البديهة والقدرة على تطويع المقامات الخطابية والتأثير في جمهور السامعين على اختلاف

[1] (البرهان)١٥٠ ، تحقيق حفضي محمد شرف .

شرائحهم ، وتتميز بها قبائل معينة " كقبيلة إياد " التي قال عنها "الجاحظ " : " ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب "[1]، وأن يتوارثها أناس معينون كما يتوارث المال ، قال أبو عبيده عن بعض الأسر :

" كان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم ... "[2]، وقد تستمر هذه الوراثة قروناً متتالية . يقول " ابن بطوطة " عن أحد الخطباء : " ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني ، وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة ، وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن "[3]، وأن تشتهر نصوص خطابية بألقاب مقصورة عليها كالعجوز والعذراء .

يقول الجاحظ : " والعرب تذكر من خطب العرب " العجوز " وهي خطبة " لآل رقبة " ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها و " العذراء " وهي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها ، و " الشوهاء " وهي خطبة سحبان وائل ، وقيل لها ذلك من حسنها ، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر و لم يخطب خطيب .. "[4].

وإذا صح ما رواه : القلقشندي " في " صبح الأعشى " فإن معرفة العرب بالخطابة كانت واسعة جداً ، يقول : " واعلم أنه كان للعرب بالخطبة والنثر غاية الاعتناء ، حتى قال صاحب " الريحان والريعان " إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره ، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي كان يقوم فيه في مشافهة الملوك أو الحملات أو الإصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، بخلاف الشعر فإنه لم يضع منه بيت واحد "[5].

---

[1] "البيان" ٥٢/١ ، وانظر ٤٣/٢ تحقيق "عبد السلام هارون .

[2] "البيان" ٣٠٨/١ .

[3] "رحلة ابن بطوطة" ٤١٧ .

[4] " البيان" ٣٤٨/١ .

[5] "صبح الأعشى ٢٥٣/١-٢٥٤ .

ولعل ما يؤيد هذا القول ما ذهب إليه " أبو عمرو بن العلاء " حين قال : " كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجته إلى الشعر الذي يقيد عليه مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ... فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر "[1].

ويبدو أن ما رواه " القلقشندي " يذهب إلى ناحية الكمية حيث بين أن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من الموزون ، بينما يذهب " أبو عمرو بن العلاء " إلى المكانة الاجتماعية التي كان يتنازعها كل من الشاعر والخطيب في العصر الجاهلي ، غير أنه سواء أخذنا بالقول الأول أو الثاني أو بغيرهما من الأقوال التي وردت في هذا الموضوع ، فإن الذي لا شك فيه هو أن عرب الجاهلية كانت لديهم معرفة واسعة في الخطابة ، وأنها كانت تنافس الشعر في جل المقامات ويكفي أن نذكر خطب " الوفادات " والخطب " الحربية " وخطب " إصلاح ذات البين " لنعرف مدى أهمية هذا الفن الأدبي ومكانته عندهم.

وإذا كانت الخطابة تقوم – من بين ما تقوم عليه – على الحجج وحضور البديهة وبلاغة القول ، فإن العرب كانوا معروفين بذلك كله ، حتى إن القرآن الكريم وصفهم بكثرة الجدل ، واللدد عند الخصومة واستمالة الأسماع بحسن المنطق ، وقال تعالى :{ وإن يقولوا تسمع لقولهم }[2] وقال جل وعلا:{ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا}[3] وقال جل ذكره : { وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون }[4] وقال تعالى : { وتنذر به قوماً لدّا }[5] .

---

[1] "البيان" ٢٤١/١

[2]. المنافقون : الاية (٤)

[3]. البقرة : (٢٠٤)

[4]. فصلت : (٥٣)

[5]مريم : الاية (٩٧)

إذن فمعرفة العرب بالخطابة وأساليبها وطرق الخوض فيها ثابتة ومؤكدة ، لكننا إذا تأملنا النصوص الخطابية التي وصلتنا عن هذا العصر الجاهلي، فإننا سنجدها بسيطة وأحياناً ساذجة ، وخاصةً إذا ما قورنت بنصوص الخطابة الإسلامية ، ولعل مرد ذلك إلى بساطة تفكير عرب الجاهلية ، وسهولة عيشهم ، إذ لم يكونوا يحتاجون معهما إلى أعمال العقل بقوة والمطالبة بالدليل والمقارعة بالحجة . ولذلك فإن مجيء الإسلام دفع هذا الفن إلى الازدهار والتطور .

٢– عوامل ازدهار الخطابة في صدر الإسلام :

بعد مجيء الإسلام ازدهرت الخطابة ازدهاراً كبيراً لعدة أسباب نذكر منها :

١) القرآن الكريم :

لقد ترك القرآن الكريم أثراً كبيراً في اللغة والأدب، سواء من حيث الموضوعات والمعاني، أم من حيث الأساليب والتعابير ، ويمكن القول إن الخطابة قد فتحت بابها لهذا التأثير أكثر من الشعر وذلك لأسباب منها :

أ. أن الخطابة لا تتقيد بوزن أو قافية ، فهي من الناحية النظمية والتعبيرية النثرية أقرب إلى أسلوب القرآن مقارنة مع الشعر .

ب. تبعاً لذلك فإن الخطيب يسهل عليه الاقتباس من القرآن الكريم ، أو الاستشهاد به دون أي تكلف أو إحراج على عكس الشعر .

ج. أن القرآن الكريم لم يرد فيه ما يمكن أن يظن منه أنه انتقاص من مكانة الخطابة أو الخطيب ، بخلاف الشعر ، بل على العكس من ذلك ورد فيه امتداح للكلمة الطيبة وثناء عليها . والخطابة إذا مشت في ركاب الدعوة فإنها من أطيب القول الذي شبه في القرآن الكريم بالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، هذا فضلاً عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان سيد الخطباء .

د. أن القرآن الكريم اعتمد الحجة والدليل في كل خطاب يهدف إلى الإقناع والتأثير وطلب البرهان من كل مدع ، قال تعالى : {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}[1] ، وقال جل ذكره:{ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه}[2].

٢) الدعوة إلى الإسلام :

قد رسم القرآن الكريم ملامح السبيل أو المنهاج الذي ينبغي أن يعتمده الدعاة ، فبين أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون على بصيرة ، وأن تعتمد الحجة والدليل وأن تسلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، وتتبع الجدال الحسن ، قال تعالى : { قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة }[3] ، وقال جل وعلا :{ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}[1] ، بل إن القرآن الكريم يرسم مبدأً سامياً في الحوار والجدل بهدف الإقناع ، فيقول الله تعالى :{ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين } ، ولم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم أدنى شك في أن المشركين على ضلال وأنه على هدى من ربه ولكن مع ذلك فإن منطق الحوار الهادف وفق التوجيه الرباني يجعل الطرفين المتحاورين على طرفي المساواة ، لأن الحوار المنطقي العقلاني يكشف عن الحق فالحق يعلو ولا يعلى عليه .

وتكاد أن تكون الخطابة الجنس الأدبي الأوحد – في ذلك العصر – الذي استجاب لمنطق هذه الدعوة ومتطلباتها لأنها تعتمد الشواهد والحجج والبراهين وتخضع لمقتضيات الاحتجاج والجدل بهدف الإقناع والتأثير ولذلك اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجل الدعاة في دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام .

---

[1]. البقرة : الاية (١١١)

[2]. المؤمنون : الاية (١١٧)

[3]. يوسف : الاية (١٠٨)

[1]. النحل : الاية (١٢٥)

٣) حرية القول واعتماد الاستشارة الجماعية :

لقد كان لسيادة " مبدأ الشورى " أثر كبير في ازدهار فن القول الذي يعتمد الحجة والبرهان ويهدف إلى التأثير والإقناع ، ومن يتصفح كتب " الأدب " و " التاريخ " و " السير " و"التراجم " ، ونحو ذلك يجد أن مبدأ الشورى كان حاضراً في كل دقيقة، وإذا كان المجال الحربي هو المجال الوحيد الذي تضيق فيه دائرة الاستشارة ، نظراً لحساسية الموقف الحربي وما يتطلب من سرية في اتخاذ القرار حتى لا يتسرب الخبر إلى العدو ، فإن المواقف الحربية التي سادتها الشورى في الإسلام دفعت الخطابة نحو الازدهار ، ذلك أن إبداء الرأي وعرض المشورة تتطلب قولاً بليغاً مقنعاً خاصةً إذا كان بحضرة جمهور من المتتبعين ، ومن النماذج الشهيرة في هذا الباب ما رواه " ابن هشام " في "سيرته" حينما ألح الرسول صلى الله عليه وسلم على استشارة أصحابه لما جاء الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم قبل " غزوة بدر " ، يقول " ابن هاشم " : " استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأخبرهم عن قريش ، فقام " أبو بكر الصديق " فقال وأحسن ، ثم قام " عمر بن الخطاب " فقال وأحسن ، ثم قام " المقداد بن عمرو " فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ... ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار . فقال له " سعد بن معاذ " : والله كأنك تريدنا يا رسول الله ! قال أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ... فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ... [١]

والإحسان في القول الذي ورد في قول " ابن هشام " ، المقصود منه إلقاء كلام يندرج في إطار الخطابة ، لوجود متحدث وكلام ومستمع ، ومثل هذه النصوص عديدة ومتنوعة حتى إن من يقرأ كتب الفتوحات ، " كفتوح الشام للواقدي " ، يجد أن قادة الجيوش على اختلاف رتبهم ومهامهم يستشيرون من حولهم من القادة والجند ، حتى إن القائد منهم

[١] "سيرة ابن هشام "١٨٨/٢ تقديم "طه عبد الرؤوف سعد"-دار الجيل.

يقول :" إني لست أدع الاجتهاد في الرأي والمشاورة لمن أثق به وبرأيه من المسلمين "[1]. الأمر الذي فتح الباب أمام الخطباء والمستشارين لإلقاء كلمات خطابيه في الموضوع الذي استشيروا فيه[2].

٣ – موضوعات الخطابة الإسلامية :

لعله قد بدا واضحاً من خلال بعض ما سبق وخاصة قول " ابن وهب " أن الخطابة يمكن أن توظف في موضوعات ومقامات متعددة تبعاً للحاجة ، فقد تستعمل – كما يقول " ابن وهب " – في إصلاح ذات البين أو في عقد الإملاك فتندرج في إطار الاجتماع ، وقد تستعمل في التشييد للملك والتأكيد للعهد ، فتندرج ضمن الإطار السياسي ، وقد تستعمل في الدعاء إلى الله عز وجل فتندرج ضمن خطب الدعوة أو التشريع أو العقيدة ، أو ما يصطلح عليه في العصر الحاضر بالخطب الدينية علماً بأن الإسلام لا يفرق بين ما هو ديني وما هو دنيوي فالكل ينظمه الدين لا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات ، ولا بين السياسة والاجتماع ، ولا بين الصلح أو الحرب ولهذا وجدنا خطباً تجمع بين موضوعات شتى ، تبعاً للمقام ، كخطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ؛ حيث إن المقام دفعه صلى الله عليه وسلم إلى تناول عدد من الموضوعات : (الربا –قتل النفس – الشرك بالله – معاملة النساء ... الخ) .

لكن قول " ابن وهب " السابق وكذا قول " العسكري " يمكن أن يعتمد عليهما إلى حد كبير في تقسيم هذه الموضوعات إلى ثلاثة أقسام رئيسية : دينية وسياسية واجتماعية ، مع التأكيد أن الخطباء كانوا يخوضون في كل مسألة أريد لها الذكر والانتشار والشهرة بين الناس .

---

[1] "فتوح الشام" ٢٦٦/١–دار الجيل .

[2] انظر على سبيل المثال "فتوح الشام" "للواقدي" ٢٣٦/١ –دار الجيل .

١- الخطب الدينية :

المقصود بالخطب الدينية تلك التي دعا فيها الخطباء جمهور السامعين إلى اعتناق الإسلام ، أو وعظوا فيها المؤمنين بحثهم على التمسك بطاعة الله تعالى وتقواه واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، أو ذكروهم بشريعة الله في موضوع معين ، أو جادلوا فيها المخالفين في قضية مذهبية ، ولذلك يمكن تقسيم هذا النوع الخطابي إلى أصناف جزئية منها :

أ – خطب الدعوة إلى الله :

التي تهتم بدعوة الناس إلى اعتناق الإسلام بالحديث عن مبادئه الأولية ومحاسنه العامة : تبعاً لقوله تعالى : { ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل عملا صالحاً وقال إنني من المسلمين }[١] وقوله عز وجل :{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }[٢] .

وإذا كان السامع المخاطب في هذا النوع من الخطب يدعى إلى اعتناق عقيدة جديدة ، وترك عقيدته القديمة ، فمعنى ذلك أنه ليس من السهل إقناعه ، إذ لا بد من حجج تثبت له مزايا المعتقد الجديد ونقائص المعتقد القديم ، ولسمو العقيدة الإسلامية نجد القرآن الكريم يوجه المسلمين إلى عدم سب عقيدة غير المسلمين وعدم جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، قال تعالى : { ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم }[١] وقال جل ذكره : { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن } [٢]. ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم في الخطبة الأولى التي خاطب بها مشركي مكة لم يتحدث عن الأوثان ولا عن عقيدة الشرك ، ولكنه حاول إقناعهم أولا بالإيمان بالغيب الذي يتجلى أساساً في الإيمان بوحدانية الله والوحي في الحساب والعقاب يوم القيامة ، معتمداً في ذلك على ما يربطه صلى الله عليه وسلم بقومه من وشائج القرابة

---

[١]. فصلت : الاية (٢٣)

[٢]. النحل : الاية (١٢٥)

[١]. الانعام : الاية (١٠٨)

[٢]. العنكبوت : الاية (١٤٦)

ومتانة الثقة وعظم الأمانة ، فلقد كان فيهم مصدقاً مجرباً في ذلك ، لم يسبق أن ضبطوا عليه كذبة واحدة ، حتى في صغار الأمور ، ولذلك فإنه حينما أمر بالجهر بالدعوة ، قال في خطبة له بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم والله لو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا "٣ .

وجاء في خطبة له صلى الله عليه وسلم في مقام مماثل بعد حمد الله والثناء عليه : " أرأيتم لو أخبرتكم أن بالوادي خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم٤ ...

ب – خطب الوعظ :

تشير آيات قرآنية وعدد من الأحاديث النبوية إلى أن إيمان المسلم يحتاج إلى تجـــــديد بالـــذكـــر والتـــذكير من ذلك قوله تعالى : {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين..} وقوله جل ذكره : { وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً } وجاء في بعض الأثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتعهد أصحابه بالموعظة . لذا كانت الخطب الوعظية أكثر أنواع الخطب شيوعاً . وواضح أنها تهدف إلى تبصير الناس بشؤون دينهم ، وحثهم على تقوى الله وطاعته والتفكير في الموت وما ينتظر الناس في الآخرة من حساب وعقاب ، ومن نماذج ذلك ؛ خطبة " علي بن أبي طالب " رضي الله عنه التي جاء فيها : " أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع ، وإن المضمار اليوم والسباق غداً ، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله و لم يضرره أمله ، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله ،فقد خسر عمله وضره أمله . ألا فاعملوا لله في

الرغبة كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ... }[1] .

وعلى هذا الأساس شكلت الخطب الوعظية العمود الفقري للخطابة الإسلامية بصفة عامة حيث إن الوعظ كان حاضراً في جميع موضوعات الخطابة على اختلاف أنواعها واتجاهاتها ، فلقد كان هناك خطباء ، ووعاظ وسياسيون وقادة حرب ، ومؤبنون ومعزون ، كما كان هناك خطباء اقترنت أسماؤهم بالوعظ في كل مجال ، " كالحسن البصري " الذي كان خطيباً مصقعا والذي اشتهر في مواقفه الجريئة مع " الحجاج " ، وبقوة تأثيره في السامعين ، حتى إن أهل " البصرة " كلما حزَّ بهم أمر توجهوا إليه لكي يلقي خطبة في الموضوع[2] .

غير أن خطب الوعظ لا ينبغي أن يتصدى لها إلا العُبَّاد والتقاة والزهاد من الخطباء ، حتى تؤدي دورها المنشود . أما ما كان يفعله بعض الخطباء الظلمة المنحرفين ، " كالحجاج " مثلاً ، الذي كان أميراً على العراق ، خطيباً لجُمعها ، فليس من الوعظ في شيء . ولهذا السبب قال عنه "الحسن البصري" : "ألا تعجبون من هذا الفاجر ، يرقى عتبات المنبر فيتكلم كلام الأنبياء ، ويترل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله " . ولذلك فإن فعل "الحجاج" ومن ماثله لا يمكن أن ينتقص من قيمة الخطب الوعظية ، فقول الحجاج المخالف لفعله صفة كثيراً ما لازمت الجبابرة الظالمين ، وقد روى " الحسن البصري " – وهو الخطيب الفاعل لما يقول – حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون بعدي أمراء يعطون الحكمة على منابرهم وقلوبهم أنتن من الجيف "[2] .

---

[1] "البيان" ٥٢/١ .

[2]. المرجع السابق نفس الصفحة.

[2] "البيان" ١٧٣/٢ .

ومما يدل على قيمة الخطابة الوعظية ، ما شرعه الإسلام في هذا الباب ، فأيام الجُمع والأعياد ، والمناسبات الكونية (الكسوف – الخسوف – الاستسقاء إلخ) وما شرع فيها من خطب وما ورد فيها من نصوص توجيهية تدل على أهمية هذا النوع الخطابي .

ج – خطب التشريع :

وهي مثل خطب الوعظ في الأهمية ، حيث إنها هي الأخرى تهدف إلى تذكير السامعين بمبادئ الإسلام وربط تصرفاتهم بتشريعاته ، غير أن الوظيفة التعليمية تطغى على خطب التشريع ، ومعنى ذلك أن الخطيب في هذا الباب يكون أعلم من السامع بالموضوع المتحدث عنه[٢] . وبالتشريعات الواردة فيه ، ومن ثم أنه لا يحتاج كثيراً إلى توظيف أدلة بهدف الإقناع ، غير أن هذا النوع من الخطب قليل ، لأن التشريعات لا تحتاج إلى خطابة وليست مناسبة لها لسبب بسيط ، وهو أن التشريع لا يكون إلا بعد الاعتقاد والإيمان بالله وحده ، فإذا ما آمن الإنسان سلم بالشرائع التي يقتضيها هذا الإيمان ، لأن العمل بتلك الشرائع تصديق عملي للإيمان بها ، ولذلك لم تعرف الخطب التشريعية إلا في مقامات محدودة ، ترتبط بالوصايا أساساً ، كوصية القائد لجيشه ، ووصية الوالد لولده . من ذلك وصية " أبي بكر " رضي الله عليه " " لأسامة " وجيشه لما سيره إلى الشام حيث قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك ، وشاورهم في الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور ... وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ... ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ولا تعذروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ... "[١].

---

[٢]. المرجع السابق نفس الصفحة.

[١] " فتوح الشام للواقدي" ٨/١ .

د – خطب المناظرات :

ترتبط المناظرات والمحاورات بالخطابة ارتباطاً وثيقاً ، وتعتبر أحد أصنافها ، لاعتماد كل هذه الأجناس من فن القول الحجج والأدلة ، وتوخيها الإقناع والتأثير في السامع ، ولقد جمع " الجاحظ " في نص طريف بين الخطابة والمناظرة ، مبيناً أهمية الفصاحة والبيان في التأثير في السامع فقال : " وليس – حفظك الله – مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطت الخطل يوم إقامة الخطبة ، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة ... والناس لا يعيرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز . وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي ، فإن تكلفاً مع ذلك مقامات الخطباء وتعاطيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب .. "[1].

وتختلف المناظرات في موضوعاتها تبعاً للمقام الذي يدفع المتناظرين إلى التناظر ، فقد تكون مرتبطة بالعقيدة أو المذهب أو قضايا الإمامة والخلافة أو أمور اجتماعية ، ولذلك فإن خطب المناظرات قد تكون دينية أو سياسية أو اجتماعية .

ولقد ازدهرت المناظرات الدينية أساساً بين الفرق الإسلامية والمذاهب الكلامية حيث كانوا يخوضون في قضايا كلامية ترتبط بصفات الله وبالقضاء والقدر والجزاء ، كما كانت هناك مناظرات بين أطراف أخرى لا تمثل مذاهب معينة ، وخاصة حينما يتعلق الأمر بمناظرة بين مسلم وكافر ، أو بين مسلم ومرتد .

وتحفل كتب " التاريخ " و " المغازي " و " الفتوح " بنماذج متعددة من هذا النوع من المناظرات وهي مناظرات كانت تدور في ساحات المعارك بين الأطراف المتحاربة قبل سل السيوف ، فلقد كان هدف المسلمين هو نشر الإسلام في أواسط الشعوب المختلفة ، ولم يكونوا يلجأون إلى الحرب إلا بعد أن تستنفد الكلمة دورها . مثال ذلك ما دار في " غزوة اليرموك " من محاورات بين عدة أطراف مسلمة ونصرانية عربية ورومية ،

---

[1] "البيان" ١٢/١ .

كتلك التي دارت بين " خالد بن الوليد " وبين " ماهان " أحد قادة جيش الروم[1]، وتلك التي دارت بين "جابر بن عبد الله الأنصاري" وبين "جبلة بن الأيهم" من نصارى العرب فلقد قال جابر : " إن ديننا لا يقوم إلا بالحق والنصيحة ، وإن النصيحة لك منا واجبة لأنك ذو قرابة ورحم ، وقد أتينا إليك ندعوك إلى دين الإسلام وتكون من أهل ملتنا ، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا ... " . فرد عليه جبلة : " ما أحب ذلك ولا غيره إنني ضنين بديني ، وأنتم رضيتم لأنفسكم أمراً ونحن رضينا لأنفسنا أمراً ... "[2] .

هـ – خطب أخرى :

سبقت الإشارة إلى أن دين الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة ، ومن ثم ليس غريباً أن نجد الخطابة الدينية تتفرع مع تفرعات شؤون الحياة المرتبطة بالدين من ذلك ما عرف بخطب الحاجة ، فلقد روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أصحابه خطبة الحاجة ، وفيها : " الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله ألا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ثم يقرأ هذه الآيات الثلاث : **{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء }**[3] ، **{ يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما }**[4] ، **{ يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن وإلا وأنتم مسلمون }**[5]. ومن ذلك بعض الخطب التي ترتبط ببعض الأحداث الكونية ، كالاستسقاء والخسوف والكسوف ونحو ذلك[6] .

---

[1] "انظر فتوح الشام" ١٨٦/١- ١٨٩ .

[2] نفسه ١٧/١ .

[3] النساء: الآية ١

[4] الأحزاب: الآية ٧٠-٧١

[5] آل عمران أية ١٠٢

[6] "صناعة الكتاب" ٢٥٣-٢٥٤ تحقيق "بدر ضيف" لبنان ١٩٩٠ .

٢ – الخطب السياسية[٣] :

مر بنا سابقاً قول " العسكري " وهو يعرف الخطابة قائلاً : " ومما يعرف أيضاً عن الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار ".

وهذا يعني ان الخطابة لها دور سياسي خطير ،اذ باستطاعة الخطباء ان يوطدوا دعائم سياسية معينة كما باستطاعتهم ان يعلنوها ثورة جامحة، ولذلك نجد خطبا عديدة تتحدث عن حقوق الراعي وواجباته على الرعية وواجبات الرعية وحقوقها على الراعي ، بالإضافة إلى شؤون السلم والحرب .

وبما أن السياسة لا تنفصل عن الدين في نظر الإسلام فان ولادة الخطب السياسية بدأت مع فجر الدعوة الإسلامية ولذلك وجدنا خطبا عديدة للرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، ترتبط بمجال السياسة ، وخاصة تلك الخطب التي كانت تلقى في المناسبات لها ارتباط بتسيير شؤون الرعية ، كالتشاور في القضايا التي تهم أمور المسلمين في السلم والحرب ، أو تولي الخلافة والولاية ونحو ذلك ،ويمكن إبراز اتجاهات هذا النوع الخطابي من خلال التقسيمات التالية :-

أ- خطب التوجيه السياسي:-

اذا ما ركزنا النظر على الخطابة السياسية في العصر الأموي فانه يمكن إطلاق هذا الاسم ولو على سبيل المجاز على الخطب التي كان يهدف منها أصحاب استمالة السامعين نحو سياستهم التي كانوا يؤمنون بها ، سواء أكانت هذه الخطب للزعماء الأمويين وأنصارهم أم كانت لزعماء الفرق المناوئة لهم اذ ان كل واحد منهم كان يعتقد ان ما يراه هو الاصلح للناس ، ومن ثم كان يحاول استمالة الجمهور إلى صفه ، واقناعه بوجهة نظره ، وتأليبه على من يخالفه ، وفي سبيل هذه الاستمالة ،كان الخطيب يوظف طاقاته التي يمكن أن يصل إليها فكره أو لسانه أو حتى يده " ثقافته الدينية – معارفه السياسية –

[٣]. المرجع السابق نفس الصفحة.

بلاغته الإقناعية " ، ومن ثم تراوحت خطب التوجيه السياسي بين مستويات متفاوتة، من حيث الوعد والمناشدة والترغيب ، ومن حيث الوعيد والزجر والترهيب .

ففيما يخص الجانب الأول نجد مجموعة من الخطب يبدو فيها طابع السماحة والمناشدة،وخاصة عند بعض الزعماء الأمويين الذين اخذوا على عاتقهم إصلاح ما أفسده غيرهم ، فكان مضمون الحديث النبوي " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " يتردد في خطبهم ، لننظر مثلا إلى خطبة" عمر بن عبد العزيز " حينما آل إليه الأمر.

فلقد روي انه لما دفن "سليمان عبد الملك " وخرج من قبره سمع للأرض رجة ، فقال: ما هذا ؟ فقيل هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها ، فقال مالي ولها ؟ نحوها عني ، قربوا إلي بغلتي فقربت إليه فركبها.

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عني ، مالي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال : " يا أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، واني قد خلعت مالي في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم" .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فتولى امرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعا،حمد الله أثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال : " أوصيكم بتقوى الله ...وان هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، واني والله لا أعطي أحدا باطلا ، ولا امنع أحدا حقا ، إني لست بخازن ، ولكنني أضع حيث أمرت .

أيها الناس : انه كان قبلي ولاة تجترون مودتهم ، بان تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، إلا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ... "[1].

وواضح أن خطبة " الخليفة عمر بن عبد العزيز " هذه هي من قبيل خطب الخلفاء الراشدين ، من حيث المعاني السامية التي تضمنتها ، في إقرار الحق ودفع الباطل ، ونشر العدل والحد من الظلم وإرساء دعائم الشورى ، ورفع مكانة الضعيف.

وعلى هذا النمط من القول سارت طائفة من الخطباء الأمويين ، بما فيها أولئك الذين قادوا ثورات معينة ، مثل "يزيد بن الوليد" الذي ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وقام خطيبا في الناس ، وقال بعد أن حمد الله أثنى عليه :- " والله أيها الناس ما خرجت أشرا ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي واني لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي ويغفر لي ذنبي ، ولكني خرجت غضبا لله ولدينه ، وداعيا إلى الله وسنة نبيه ...

أيها الناس إن لكم علي أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة ...ولا انقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله ،بما يغنيهم ، فان فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه ...ولا اغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ... فان أنا وفيت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة ، وان أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعوني... وان عرفتم أحدا يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم ، فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل في طاعته ".[2]

وأما فيما يخص الجانب الثاني ، فإننا نجد مظاهر الوعيد والترهيب تتجلى في جانب خطب بعض الولاة الأمويين الذين عرفوا بالبطش والتجبر " كالحجاج بن يوسف الثقفي " ، و" زياد بن أبيه " ومن شابههما ، غير انه لا ينبغي أن يفهم من ذكر هذين الاتجاهين في

---

[1] "جمهرة خطب العرب "٢٠٣/٢ – ٢٠٤ المكتبة العلمية – بيروت .

[2] "البيان" ٢٦٥/١ .

الخطابة انهما منفصلان تمام الانفصال ، فلقد كان عامة خطباء بني أمية يمزجون الترغيب بالترهيب ،أملا في استجابة الراغب ، وقهر المعاند ؛ كما أن بعضهم الآخر كان يحاول البحث عن علل لتبرير بعدهم عن نهج سلفهم من الخلفاء الراشدين ، معترفين بالخطأ والتقصير ، ومنبهين إلى أن اللوم لا ينبغي أن يقع عليهم وحدهم ، "فمعاوية بن أبي سفيان" يقول مثلا :" فاقبلونا بما فينا ، فان ما وراءنا شر لكم" .

ويقول" عبد الملك بن مروان " :" ألا تنصفوننا معشر الرعية تريدون منا سيرة" أبي بكر وعمر " ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية " أبي بكر وعمر " ، اسأل الله أن يعين كلا على كل"[1]. وان كان لابد من الإشارة إلى أن " الحجاج " – ومن ماثله –كان يشكل شذوذا في القاعدة العامة للخطابة الإسلامية[2].

ب– خطب المناظرات والمشاورات :–

سبق أن قلنا أن المناظرات من جنس الخطابة لاعتمادها الحجة والدليل وتوخيها الإقناع ، وان موضوعاتها تتنوع وتتفرع تفرع الموضوعات القابلة للحوار والجدل .

وبما أن أمور المسلمين في الأصل شورى بينهم ،مصداقا لقوله تعالى :{وأمرهم شورى بينهم }[3]،فلقد عرفت أمور السياسة ألوانا من المناظرات والمشاورات بين مختلف الأطراف أفرادا وجماعات،ورعاة ورعايا ، سلطة ومعارضة . ولقد دارت تلك المناظرات أساسا حول قضايا الإمامة وما يتصل بها . وإذا ما تتبعنا المقامات التي دفعت إلى هذه المناظرات ، فانه من الناحية التاريخية يمكن اعتبار " خطب السقيفة " صورة مبكرة لهذه المناظرات ، فلقد تحدث في هذا المقام " أبو بكر " و " عمر بن الخطاب " باسم المهاجرين ، وتحدث " سعد بن عبادة " و "الحباب بن المنذر " باسم الأنصار . وكان كل طرف يحاول إقناع الطرف الآخر بأحقيته بخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم .كما أن الخطب التي تداولها كل من "عثمان بن عفان " و" علي ابن أبي طالب " و" عبد الرحمن بن عوف " في أهل

---

[1] " البيان " ٢٦٥/١ .

[2].انظر ما ورد في " العقد الفريد" ٣٥٤/٢ دار الكتاب ١٩٨٣م.

[3]. الشورى : الاية (٣٨)

الشورى بعد مقتل الخليفة " عمر بن الخطاب رضي الله عنه" يمكن أن تدخل في هذا الإطار أيضا. كما عرف " يوم الدار " نموذجا آخر من هذه الخطب حينما تبادل " عثمان بن عفان " والناقمون عليه أقوالا وخطبا ، وكما الشأن في أنواع الخطابة الأخرى عرف هذا الفن تطورا ملحوظا بعد مقتل " عثمان " رضي الله عنه ، وما تلا ذلك من تصدع في صف المجتمع الإسلامي خاصة بعد " موقعة صفين " التي نتج عنها ظهور عدد من الفرق الإسلامية ، كانت كل فرقة ترى أن الحق معها وتحاول إقناع الأطراف الأخرى بما تراه ، لكن مع ذلك لم تعدم هذه المناظرات وجود محاورين مخلصين ممن كانوا يبحثون عن الحقيقة وجمع كلمة المسلمين والاعتصام بحبل الله والابتعاد عن التشرذم والتفرقة ، ومن هنا وجدنا عددا من الخلفاء والأئمة الذين ناظروا مختلف الفرق والجماعات ، كما هو شأن الخليفة "عمر بن عبد العزيز" الذي ناظر "الخوارج" ، وبادر إلى دعوتهم ، رغبة في الحق ، وجمعا لكلمة المسلمين[1] .

٣-الخطب الاجتماعية :

نقصد بالخطب الاجتماعية تلك التي كانت تلقى في المحافل العامة والتجمعات الشعبية ، لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالزواج ، والمخاصمات القضائية ، وإصلاح ذات البين ، والتهنئة والتأبين والتعزية ، وغير ذلك من شؤون الحياة العامة ، مع التأكيد ان الجانب الديني كان دائما حاضرا في كل هذه الموضوعات الخطابية .

أ- **خطب الإملاك :**

وهي الخطب التي كانت تلقى بمناسبة عقد الزواج .ولقد عرف هذا النوع من الخطب سننا خاصة ، سواء في شكل الخطبة أو في هيئة الخطيب ، ففيما يخص شكل الخطبة ، فان خطبة النكاح لها مقدمة خاصة ، تختلف عن أنماط الكتابة الاخرى ، وتكون طويلة من الخاطب وقصيرة من المجيب ، كما ان الخطيب فيها يكون قاعدا لا قائما ، حتى اذا قيل فلان يجيد الخطبة قاعدا كقائم ، فان المقصود بقاعدخطبة النكاح . ويبدو ان خطب

[1] انظر المناظرة في "جمهرة خطب العرب" ٢/٢١٤ -٢١٥ .

النكاح كانت تتطلب جرأة ورباطة جأش وبلاغة اكثر من الخطب الاخرى ، حتى إن " عمر بن الخطاب رضي الله عنه " قال : " ما يتصدعني شئ كما تتصدعني خطبة النكاح".

ولقد علل " ابن المقفع " هذا القول بأنه " ربما أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب في اجواف الحداق . ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا

كأنهم نطراء وأكفاء فإذا خطب فيهم صاروا سوقه و رعية " ، بينما علل آخرون بأن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره ان يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا ، وغر القوم من صاحبه " . غير ان "الجاحظ " استبعد هذا التعليل قائلا : " ولعمري ان هذا التأويل يجوز اذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة . فأما " عمر بن الخطاب " ، رحمه الله ، وأشباهه من الأئمة الراشدين فلم يكونوا ليتكفلوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح "[1].

وإذا نظرنا إلى نصوص " خطب النكاح " ، فإننا سنجد أنها كانت معروفة منذ العصر الجاهلي ، ولعل أشهر خطبة وصلت إلينا في الموضوع خطبة " أبي طالب " في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة " خديجة رضي الله عنها " حيث قال : " الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن " محمد بن عبد الله ابن أخي " من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه ، فإن المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في " خديجة بنت خويلد " رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي " .

ومما روي في " الرد على الخطاب " ، خطبة عامر بن الظرب العدواني ، وكان حكيما خطيبا رئيسا – كما قال الجاحظ – حينما خطب إليه " صعصعة بن معاوية " ابنته، قال: " يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، وأرحم ولدي عندي.

---

[1] "البيان " ١١٧/١ .

غير أني أطلبتك أو رددتك ، فالحسيب كفء الحسيب ، والزواج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتك مخافة ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية . أنصح ابنا وأوضع ضعيفا قويا. يا معشر عدوان، خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رغبة ولا رهبة ... "[1].

وقد طبعت خطب الإملاك بعد الإسلام بطابع إسلامي واضح أساسه أن النكاح يجمع بين الأنساب ، ويقوي أواصر الأرحام ، وأنه فطرة وسنة مصداقاً لقوله تعالى { **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة** } (الروم ٢١)، وقوله عز وجل{**وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً**} (الفرقان ٥٤) .

وهذا ما نجده في عدد من الخطب كخطبة "عمر بن عبد العزيز" حينما طلب إليه "محمد بن عبد الوليد عتبة" أخته ، حيث قال : " الحمد لله رب العزة والكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء . أما بعد فقد أحسن بك ظنا من أودعك حرمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجناك على ما في كتاب الله ، إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان "[2].

وأشهر خطبة في هذا الباب خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في تزويج علي لفاطمة رضي الله عنها حيث قال صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله المحمود بنعمه ، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه ، المرهوب من عقابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بحكمته ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بمحمد نبيه . أما بعد فإن الله جعل المصاهرة نسبا لاحقا وحقا واجبا وفرضا لازما ، وحكما عادلا وخيرا جامعا، وشج به الأرحام وألزمه الأنام ، وفرق به الحلال والحرام فقال جل ذكره { **وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا** }[2] فأمر الله يجري إلى قضائه ، وعلمه سائر على قدره ، ولكل حكم أجل { **لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** }[3] ولأمر الله عز وجل العلو والنفاذ . وقد

---

[1] "البيان" ٧٧/٢ .

[2]. الفرقان : الاية (٥٤)

[3]. الرعد : الاية (٣٩)

أنكحت فاطمة بنت محمد لعلي بن أبي طالب المشارك لها في نسبها ، الرضا عند الله عز وجل وعند رسوله على المدة العادلة والسنة القائمة . فجمع الله شملهما وبارك لهما ، وجعلهما مفاتح الرحمة وأمناء للأمة . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم "[1] .

ولقد اكتسبت هذه الخطبة من بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم مكانه خاصة ، فجعلتها متميزة شكلا ومضمونا . مع العلم كما قلنا سابقا أن القول في مثل هذا المقام يتطلب بلاغة خاصة ورباطة جأش أكثر من خطب المنابر الاخرى ولذلك كان العديد من الخطباء على بلاغتهم ومكانتهم يتهيبون هذا النوع من الخطب ، ولعله لهذا السبب كان الحسن البصري رحمه الله يردد خطبة واحدة في كل مناسبة ، حيث يقول بعد حمد الله والثناء عليه :" أما بعد فان الله جمع بهذا النكاح الارحام المنقطعة والأنساب المتفرقة ، وجعل ذلك في سنة من دينه ، ومنهاج واضح من أمره ، وقد خطب إليكم فلان ، وعليه من الله نعمة" .

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلم قاصا مجيدا ويجلس إليه الفقهاء فخطب إلى قوم من بني تميم ، فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابيا منهم فقال: " توسلت بحرمة ، وأدليت بحق واستندت إلى خير ودعوت إلى سنة ، ففرضك مقبول ، وما سألت مبذول ، وحاجتك مقضية ان شاء الله ". فقال الفضل :" لو كان الأعرابي حمد الله في أول كلامه وصلى على نبيه لفضحني يومئذ "[2].

و لم يكن الفضل يقصد بالافتضاح إلا الجانب البياني ، مما يعني انه كان مقصر مقارنة مع الأعرابي الذي رد عليه ، رغم مكانته البلاغية والخطابية . ومما يدل أيضا على صعوبة هذا النوع من الخطابة ان قريشا في الجاهلية على مكانتها البيانية وفصاحتها اللغوية كانت تردد

---

٤. " صناعة الكتاب " ٢٥٤-٢٥٥.

[1] "صناعة الكتاب" ٢٥٤-٢٥٥

[2] "البيان "٧٣/٤

نصا واحدا ، وهو قولها :" باسمك اللهم ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت "[1] .

ب –خطب المخاصمات القضائية :–

وهي الخطب التي ألقيت دفاعا عن وجهة نظر أمام القاضي أو الحاكم أو الخصم . ولقد شجع على هذا النوع من الخطب استقلال القضاء في الإسلام ، وحرية المظلوم أو المتهم في الدفاع عن نفسه ، أو توكيل من يراه أهل لذلك .

وواضح ان إدراج المخاصمات القضائية ضمن الخطابة يعود إلى ان المتحدث المتهم يحاول إقناع السامع ببراءته أو بوقوع الظلم عليه ، كما نجد في قول "خولة بنت ثعلبة" حينما ظاهر منها زوجها ورفعت أمرها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لها :" أراك قد حرمت عليه ، كانت هي تجتهد في الشكوى والدفاع عن نفسها وتقول :أكل مالي وافنى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى اذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ثم تقول أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وان لي صبية صغاراً ان ضممتهم إليه ضاعوا، وان ضممتهم إلي جاعوا. وجعلت ترفع يدها إلى السماء وتقول : "اللهم أشكو إليك "[2]. وقد سمع الله تعالى شكواها فأنزل في شأنها قرآناً يتلى كما هو معروف .

ويبدو أن النساء كان لهن دور لا يستهان به في هذا النوع من الخطب ، حيث اشتهرن في الإجادة فيها . كما حدث لامرأة أبي الأسود الدؤلي حينما خاصمت زوجها في شأن ابن لهما أراد ان يأخذه منها كرها بعد طلاقها ، فرفعت أمرها إلى زياد الذي كان واليا للبصرة ، فقالت : " اصلح الله الأمير ، هذا ابني كان بطني وعاءه ، وحجري فناءه ، وثديي سقاءه ، أكلؤه اذا نام ، وأحفظه اذا قام ، فلم أزل بذلك سبع أعوام ، حتى

---

[1] "البيان"١/٤٠٨

[2] انظر تفسير أوائل سورة "المجادلة" في" تفسير ابن كثير"و"فتح القدير" للشوكاني ".

استوفى فصاله ، وكملت خصاله ، واستو عكت أوصاله ، وأملت نفعه ، ورجوت دفعه ، أراد أن يأخذه مني كرها ، فآدني أيها الأمير ، فقد رام قهري واراد قسري .

فقال أبو الأسود : اصلحك الله : هذا ابني ، حملته قبل ان تحمله ، ووضعته قبل ان تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وانظر في أوده ، وامنحه علمي ، والهمه حلمي ، حتى يكمل عقله ويستحكم فتله .

فقالت المرأة : صدق أصلحك الله ، حمله خفا وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعته كرها.

فقال زياد : اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك ، ودعني من سجعك[1] .

وقد تكون بلاغة المرأة كافيه لها عن الاتيان بالبينه ، كما حدث لأم ارسل اليها ابنها مبلغا من المال ، فرفض الرسول ان يدفع لها المال حتى تكون معها البينة على أنها أمه . فلما اضطرت بالإتيان بمن يعرفها والكشف عن وجهها قالت :" الحمد لله ، وأشكو إلى الله الذي ابرزني ، وشهر بالفاقة أهلي " . فلما سمع الرجل كلامها شهد بأنها أمه وأعفاها من البينة[2] .

ج- خطب ذات البين:

وهي الخطب التي كان أصحابها فيها يدعون إلى نبذ الحرب وبيان مافيها من دمار والى التصافي والتواصل ونبذ الأحقاد والتقاطع ، ولقد بين الجاحظ ان هذا النوع من الخطب يستحب فيه التطويل لكن دون املال السامعين ، معززا قوله بما روي عن قيس بن خارجة لما قيل له عمّا عنده في شأن حمالة "داحس والغبراء" ، قال :" عندي قرى كل نازل ورضى كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها

---

[1] "الامالي" ١٢/٢ .

[2] "البيان" ١٠٠/٢ .

بالتواصل وأنهي فيها عن التقاطع "قالوا فخطب يوما إلى الليل ، فما أعاد فيها كلمة ولا معنى "[1] .

ولقد اكتسى هذا النوع من الخطابة مكانه خاصة بعد الاسلام في ضوء الامر الرباني بوجوب الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، والصلح بين الناس أفراد وعشائر وطوائف قال تعالى **{وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما }**إلى قوله تعالى **{انما المؤمنين أخوة فاصلحوا بين أخويكم}** (**الحجرات ١٠/٩**) .ولذلك وجدنا العديد من الخطباء يحاولون الإصلاح بين الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ومذاهبهم .

ومن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم في الموضوع ، خطبته التي اصلح فيها بين الاوس والخزرج بعد ان حاول اليهود الوقيعة بينهم عن طريق تذكيرهم بيوم بعاث الذي كان في الجاهلية . فلما هاج الناس ، وبلغ رسول الله فلما جاءهم خاطبهم قائلا :

" يا معشر المسلمين ، الله الله أبدعوى الجاهلية أنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله إلى الاسلام ، واكرمكم به ، وقطع به عنكم امر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ..."[2].

د – خطب التأبين والتعزية :

وهي الخطب التي كانت تلقى بعد موت الاشخاص ، ويدور موضوعها في الغالب حول ذكر مناقب الميت وما خلفه فقده من الحزن والاسى ، والدعوة له بالمغفرة والرحمة ولأهله بالصبر .

وقد يلجأ الخطيب في مثل هذه المناسبة إلى وعظ الناس باعتبار ان الموت اكبر واعظ للإنسان كما ورد في الحديث النبوي .

ومن خطب التأبين خطبة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما توفي أبوها ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث قامت على قبره وقالت :

---

[1] "البيان" ١١٧/١.

[2] "السيرة النبوية" ١٤٧/٢ .

" نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها ، وللآخرة معزا لإقبالك عليها ، وان كان لأجل الأرزاء بعد رسول الله رزؤك ، ولاكبر المصائب فقدك ، وان كتاب الله ليعد بجميل العزاء عنك حسن العوض منك فانتجز من الله موعوده فيك في الصبر فاستخلصه بالاستغفار لك " .

ومن خطب التعزية ما قاله أحد الخطباء :

" اذا استوى المعزي والمعزى في النائبة استغني عن الاكثار في الوصف لموقع الرزية، وكان ظهوره يغني عن التنبيه اليه .{إنا لله وإنا إليه راجعون } ، إقرارا بالمسألة واعترافا بالمرجع إليه وتسليما لقضائه ، ورضا لموقع أقداره ، واسأل الله ان يصلي على محمد صلاة متصلة بركاتها ، وان يوفقك لما يرضيه عنك قولا وفعلا حتى يكمل لك ثواب الصابرين المحسنين واجر المطيع المنتجز للوعد . فرحم الله الفقيد واحله منازل أوليائه الذين رضى سعيهم ، وتطول بفضله عليهم ، انه ولي قدير " .

وحينما يكون الخطيب خليفة نجد الخطباء يحاولون الجمع بين التعزية والتهنئة،، أو الدعوة للبيعة ، كما في خطبة غيلان الثقفي ، التي قالها عندما توفي عبد الملك بن مروان ، وجلس ابنه الوليد ، وقال :"يا امير المؤمنين ، اصبحت قد رزيت خير الاباء ، وسميت بخير الأسماء، وأعطيت افضل الأشياء ، فعظم الله لك على الرزية والصبر ، واعطاك في ذلك نوافل الأجر ، واعانك على حسن الولاية والشكر . ثم قضى لعبد الملك بخير القضية ، وانزله بأفضل المنازل المرضية، وأعانك الله من بعده على الرعية [1].

هذه ابرز موضوعات الخطابة الاسلامية ، وهي موضوعات كما يلاحظ ، غطت امور المعاش والمعاد للمسلمين ، مما يعني ان الخطابة كان لها شأن كبير في حياة المسلمين ، وخاصة في عصرهم الأول.

---

[1] البيان" ١٩٢/٢.

أهم المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد، **الكامل**، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ط٢ (١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م).

٣. ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، دار الكتاب ١٩٨٣.

٤. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، ط١، دار القلم – بيروت.

٥. ابو علي القالي، **الأمالي**، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان.

٦. الجاحظ، **البيان والتبين**، دار الكتاب العلمية – بيروت.

٧. الجرجاني، علي بن محمد الشريف، **التعريفات**، مكتبة لبنان – بيروت (١٩٧٨).

٨. الزركشي، عبدالله، **البرهان في علوم القرآن**، ط(٢)، دار الفكر – بيروت.

٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير**، دار الفكر – بيروت (١٩٧٣).

١٠. صفوت، احمد زكي، **جمهرة خطب العرب**، المكتبة العلمية – بيروت.

١١. الطبري، ابو جعفر محمد بن حرير، **تاريخ الامم والملوك**، دار المعارف – مصر.

١٢. القلقشندي، احمد بن علي، **صبح الاعشى**، دار لكتب العلمية – بيروت.

١٣. الواقدي، ابو عبدالله بن عمر، **فتوح الشام**، دار الجيل – بيروت.

תקציר

במאמר זה אתייחס לאומנות הנאום והדרשות, שנחשב לאחד מבין האומנויות של הז׳אנרים הספרותיים אשר התפתח ושגשג אצל הערבים בכלל והמוסלמים בפרט.

זהו ז׳אנר ספרותי מוכר אצל כל האומות והעמים. אין הבדל רב ומשמעותי בין אומות מודרניות לבין אומות פרימיטיביות.

נוסף לזה אנסה להציג כמה סיבות שגרמו להתפתחות הז׳אנר הנ״ל בתקופה המוסלמית הראשונה שבה נכתב המקור העיקרי של הספרות